نوادر الطيور

جاء في خرافات بعض اهل الشمال ان الله سبحانه لما كوّن الارض وأكمل نظامها رآها الشيطان فسوّلت له نفسه الخبيثة ان يدمرها تدميرًا فرماها بحجر كبير من السماء السابعة ورأى ذلك احد الملائكة الاخيار فنزل مسرعًا كالبرق ودفع الحجر قبل ان يصل الى الارض فوقع في البحر الشمالي وتكسّر كسرًا غرق بعضها في الماء وبقي البعض الآخر ظاهرًا فوق الماء وسمّي بلاد اسوج ونروج وما حولها من الجزائر الكثيرة. ثم ان الله رحم تلك البلاد فامرها بالخصب فانبتت اشجارًا وأحراشًا نضرة انتهى. ويقول الذين اكتحلت عيونهم ببرآها وتضمخت انفاسهم بعبير نباتها انها من اجمل البلدان منظرًا واطيبها هواء ولكن متى اوغل الانسان فيها وعبر الدائرة الشمالية لم يعد يرى ارضًا محروثة ولا اشجارًا مغروسة لان الناس يعيشون هناك من اسماك البحر واطياره. فانه اذا توارت الشمس عنهم في ليلها الطويل ماج البحر بالاسماك الكثيرة الواردة الى البر لتتزاوج وتوالد فيصطادها الاهالي بالالوف والملايين ويخزنون بها قوارمهم وبيوتهم ويستمرّون على ذلك من اوائل ديسمبر (كانون الاول) الى اوائل فبراير (شباط) وحينئذٍ تبزغ اشعة الشمس من الافق ولا تمضي ايام كثيرة حتى تجلّي كلها للابصار فتغوص الاسماك الى لجة البحر ويمضي الصيادون الى بيوتهم ليتمتعوا بجنى اتعابهم ولكنهم لا يقيمون فيها اسابيع كثيرة حتى تطبّق السماء عصائب الطيور قاطعة الى البر يحدوها الحب وينودها الهيام

وهذه الطيور تحيا في البحر وتعيش منه وتنام على سطوح الماء فراشها والسماء غطاؤها ولكن حالما تبزغ اشعة الشمس وتقبّل جبين الآكام والربى تهيج فيها عواطف الهيام فترفع شراعها وتسير نحو البر سيرًا حثيثًا لتتزاوج فيه وتخلف نسلاً او لتنضي نحبها في مسقط رأسها كما يفعل ابن آدم اذا شاخ في ارض غربته

ومن هذه الطيور نوع من البط اسمه بط ايدر يُستخرَج منه الريش الذي يحشو به الافرنج الوسائد. وريش الذكر مزوّق بالوان جميلة بين الاسود والاحمر والاصهب والابيض والاسمر والاصفر ممتزجة فيه امتزاجًا بديعًا واما الانثى فمرتدية بلباس الحشمة والوقار كأنها من الزهاد

قلنا انه حالما تبزغ اشعة شمس الربيع تحنّ هذه الطيور الى البر فينشق كل إلف عن الفه ويخوضان عباب البحر سوية والانثى تتقدم الذكر آمرة ناهية وهو يتبعها راضخًا لامرها ونهيها حتى تصل الى البر فتشرع تفتش عن مكان تبني فيه أفحوصها وتبيض فيه بيضها فتنتقد الاماكن نَقْدَ الصيارف للدراهم حتى تجد مكانًا مناسبًا ولو في مساكن الناس فتبني فيه لفحوصها بلا معارض ولا

مانع . وقد تبنيو في النرن الذي يخبز فيو الخبز فيضطر الانسان ان يتركهُ لها ويبني لهُ فرنًا آخر وهو الرايج لانها تبنيو اكثر من حقو كما سيجيء

وتبني أُخوصها من الحشيش ثم تتنف ريشها الناعم وتبطنهُ بهِ حتى يجد فراخها فراشًا وثيرًا . ويشبهها الذكر في ذهابها وايابها ودخولها وخروجها يحرسها من الاعداء ولكنهُ لا يتنازل الى معونتها في اعمالها . وحالما تبيض بيضها يهجرها ويعود الى البحر ليسرح ويمرح مع بقية الذكور التي هجرت اناثها

وتبيض البطة من اربع بيضات الى ثمانٍ اوعشر ومتى فرغت من البيض يأتيها ابن آدم ويدوِ سلَّة كبيرة فيسلبها الخوصها بما فيو ويضعهُ كلهُ في سلتو فيبيع الريش ويأكل البيض او يبيعهُ فتعود البطة الى البحر تفتش عن زوجها وتشكو اليهِ ضيمها فيحنُّ اليها ويعود معها الى البر . فتجمع الحشيش وتبني بهِ اخوصًا آخر ولكنها تعيد الى زوجها فتتف ريشهُ كما تتنت ريشها وهو لا يعارضها بل يسبقها الى ذلك (ولا يرى ولد الأبتتف ريش والديو) ثم يغادرها هي وعشها ويعود الى البحر فتبيض بيضها ثانيةً ولا تفارقهُ الاَّ قليلًا في الصباح اذ تذهب الى البحر لتغتسل وتفتش عن شيء من الطعام وهي مرتاحة البال لان مصلحة الانسان تدعوهُ الى حماية فراخها لكي لا ينقرض نوعها . فلا خوف عليها حينئذٍ الاَّ من كواسر الطير ولكنَّ لونها المشابه للون الارض التي حولها يخفيها عن بصرهِ . قال الدكتور برهم الطبيعي حدث لي اكثر من عشرين مرة انني كنت اقف بجانب الخوص من افاحيصها وانا لا اراهُ ولا اشعر الاَّ وهي تنقرني نقرًا خفيفًا كانها تقول ايَّاك والخوصي . وكثيرًا ما كنت المسها بيدي والمس بيضها ايضًا فلا تنزعج مني

ومن مزايا هذا البط ان كل بطةٍ منهُ تختلس بيض جارتها اذا حانت لها فرصة وتضعهُ مع بيضها . واذا غابت واحدةٌ منهنَّ ورجعت ورأت ان جارتها اختلست من بيضها لم تطالبها بل تربصت الى ان تغيب جارتها فتمضي الى الخوصها وتختلس بعض بيضها . ولذلك فالبيض الذي تحضنهُ البطة الواحدة قد لا يكون فيهِ بيضة من بيضها

وينقف البيض في ستةٍ وثلاثين يومًا وحالما يجفُّ ريش الفراخ تحملها امانها الى البحر وتعلمها السباحة . وقد تكون المسافة طويلة بين الاخوص والبحر فتتعرَّض الفراخ لمخاطر كثيرة من البواشق والغربان ونحوها من الكواسر التي ترصدها لتنتك بها . فيأتي الانسان لمعونتها والذود عنها ويدهِ سلتان كبيرتان فيضع ريش الافاحيص في سلة والفراخ في سلة اخرى ويسير نحو البحر والامات تتهادى وراءهُ الى ان يصل الى الشاطىء فيفرغ سلة الفراخ عليهِ وتأتي الامات وتأخذ كل واحدة اكثر عدد تقدر على اخذهِ منها سواء كانت من فراخها او من فراخ غيرها وتعاملهنَّ كأنهنَّ فراخها وهنَّ يعاملنها كأنها امهنَّ . فتعلمهنَّ السباحة والغوص في الماء لجلب الطعام من القرار

الذي في قاع البحر ونواظب على ذلك شهرين كاملين وحينئذٍ يأتي الذكر و يقود زوجته وفراخها الى حيث تقضي فصل الشتاء

وهناك طائر آخر من طيور الماء اسمهُ الاوك يشبه البط شكلاً الا في منقاره فانهُ محدَّد . ولهُ ثلاثة انواع يساكن بعضها بعضاً . قال برهم المتقدم ذكرهُ أُخبرت ان باحد الجبال مليون طائر من الاوك ففصدته بقاربي ومعي رفيق لي من رفاقي فلما دنونا منهُ رأينا عليهِ طيوراً كثيرة فاختفت من وجهنا حالما رأتنا فاحترنا في امرنا لاننا لم نعرف كيف اختفت . ولكن حالما نزلنا الى البر رأينا الارض مخرَّمةً كانها شهد العسل وظهر لنا ان هذهِ الطيور تحفر اوجاراً في الارض كالارانب وتبيض فيها وتأوي اليها هي وفراخها . فاخذنا نصعِّد في الجبل فكانت الطيور تنظر الينا ثم تطير من وجهنا حتى امتلأ الفضاء بها وحجبت عنا نور الشمس . فلما بلغنا قمة الجبل طار عنهُ صقران كبيران ووقعا عليها واختطفا اثنين منها فوقعت الأوكة في البحر وغاصت فيهِ كلها فلم نعد نرى الا السماء والماء . وبعد قليل اخذت تظهر من تحت الماء فقطَّعت البحر الى منتهى امد البصر ثم طارت الى الجبل الذي كنا عليهِ فوقعت وغطت الارض وكانت تنظر الينا متعجبةً من امرنا اكثر مما كنا متعجبين من امرها

وطائر الاوك هذا ذكورهُ اكثر من اناثهِ عدداً فيعاهد الذكر منهُ الانثى عهد الزواج و يأتي بها الى البر في فصل الربيع لإخلاف النسل فيتبعها الذكور العزب التي لم تجد زوجات على امل ان يموت ذكر من الذكور المتزوجة او يصاب بداهية اخرى فيتزوج احدها بارملتهِ . و يرجع كل زوج الى عشهِ او وجرهِ واما الفراخ التي ولدت في السنة الماضية فتحفر لنفسها اوجرة جديدة او تمتلك الاوجرة القديمة التي مات اصحابها . وتدخل الانثى الوجر وترتبهُ وتبيض فيهِ وتحضن البيض خمسة وعشرين يوماً كل يوم احدى وعشرين ساعة و يكون زوجها قائماً على باب الوجر يحرسها ثم يترك البيض للحضنة الثلاث الساعات الباقية ولكن غيرتهُ عليها تحملهُ على اقتفاء خطواتها خوفاً من الذكور العزب فيتبعها حيثما ذهبت وحالما يخرج وراءها يدخل الوجر واحد من العزب و يحضن البيض الى ان تاتي أمهُ . واذا اصاب الوالدين مصيبة فالعزب تحضن البيض وتربي الفراخ كانها فراخها

ومتى جف ريش الفراخ تاخذها امانيها الى شاطىء البحر وترمي انفسها امامها في البحر مراراً عديدة وهي واقفة تخاف ان تقتفي آثارها ثم تطرح نفسها وراءها بغتة فتصل الى الماء سليمة وتشرع في السباحة بغريزتها كانها ربيت في الماء وتنيم امامها بجانبها تعينها وتريحها حينما تتعب بقلبها على ظهرها الى ان تتقن السباحة و يقبل فصل الشتاء فتمضي الى مشتاها